ابن سينا: حول عقيدته وآراؤه وفكره

[الفصل الأول]: عقيدته الدينية ومذهبه الفقهي

(1.1) هل كان أبو علي ابن سينا شيعيًا؟!

تكاد الشيعة الإمامية تقاتل من أجل نسبة ابن سينا الى المذهب الإثني عشري

الثابت تاريخيًا أن ابن سينا وُلِد ونشأ لأسرة شيعية إسماعيلية، والظاهر أن إسماعيليتها حادثة، إي التحقت بالمذهب الإسماعيلي حينما ظهرت الدعوة الفاطمية. ومن خلال نص كلام ابن سينا نفسه يتضح أنه رفض المذهب الاسماعيلي، وهذا النص يحاول الشيعة من خلاله، وغيره، إثبات أن ابن سينا ظلّ وفيًا لمذهبه الإثني عشري، ذلك المذهب الذي لم يذكر ابنُ سينا قط في أي كتاب من كتبه أنه ينتمي إليه، ولا ادعاه له أحد من تلاميذه، ولا غيرهم، سوى الشيعة الإمامية التي تحاول ليّ أعناق بعض كلام ابن سينا ليًّا لتثبت أنه كان شيعيًا اثني عشريًا. يقول الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا، رحمه الله، عن الدعوة الإسماعيلية، نقلًا عن كتاب الخزرجي، ما يلي: "كان أبي ممن أجاب داعي المصريين ويُعدُّ من الإسماعيلية. وقد سمع (أبي) منهم ذكرَ النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم (الإسماعيليين)، وكذلك أخي. وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي، وابتدأوا يدعونني إليه" ا. هـ. ولم يذكر هل قبل دعوتهم أم لا، لكنه ذكر ما قد يفيد عدم قبولها، وذلك من خلال التصريح بأن نفسه ما كانت تقبل قولهم.

(1.2) القول النفيس في تفنيد الزعم بإثني عشرية الشيخ الرئيس

صنّف الشيخ الإمامي علي بن فضل الله الجيلاني كتابًا بعنوان "توفيق التطبيق في إثبات أن الشيخ الرئيس من الإمامية الإثني عشرية"، دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمي، أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بجامعة القاهرة، نشر عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1953 م (الرابط في التعليق الأول). وبمراجعة الكتاب تبيّن لي أنه لا يوجد فيه نصٌ واحد قاطع الدلالة يبرهن على صحة الزعم القائم بعنوان ذلك الكتاب، وأن أقصى ما قد يقال بهذا الشأن أن الشيخ الرئيس ابن سينا رحمه الله قد يكون مقاربًا في باب الإمامة من مذهب معظم المعتزلة من تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام، على سبيل الندب لا الوجوب الذي يأثم مخالفه، وليس أكثر من ذلك، فليس فيه ما يدل من قريب أو بعيد على صحة توفيق التطبيق فيما يتعلق بمذهب الإثني عشرية في الإمامة، ولنأخذ دليلًا من كلام ابن سينا في كتاب الشفاء، قسم الإلهيات، المقالة العاشرة، الفصل الخامس والأخير، وعنوانه "في الخليفة والإمام ووجوب طاعتهما...". في مقدمة ذلك الفصل يبين ابن سينا أن الاستخلاف لا يكون إلا من جهة السّانّ (أي صاحب السنة وهو النبي صلوات الله عليه)، أو يكون الاستخلافُ "بإجماع من أهل السابقة على مَن يصححون علانية عند الجمهور أنه مستقل بالسياسة" ا. هـ. أي أن الشيخ الرئيس يرى إنعقاد الاستخلاف بإحدى طريقتين، إما استخلاف من النبي نفسه بالنص، وإما بالبيعة والاختيار من أهل السبق إلى الإسلام. وأقصى ما عند الإمامية بهذا الشأن هو قول ابن سينا بعد ذلك: "والاستخلاف بالنص أصوب فإن ذلك لا يؤدي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف" ا. هـ. قلت: أقصى ما يدل عليه لفظ "أصوب" هنا أنه أكثر استحبابًا، وليس الوجوب، وإلا لما ذكر ابن سينا الاستخلاف بإجماع أهل السبق، وأنه لا يدل كلامه هنا على أكثر مما ذكرناه من قبل، وهو قريب مما ذهب إليه الدكتور محمد مصطفى حلمي في ص 216 و 217 من الكتاب المذكور.

(1.3) في الإمامة العظمى

يقول الشي الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا، رحمه الله:

"المعوَّل عليه (في الإمامة العظمى): الأعظم العقل، وحسن الإيالة (حسن التدبير)

فمن كان متوسطًا في الباقي ومتقدمًا في هذين - بَعدَ ألا يكون غريبًا في البواقي وصائرًا إلى أضدادها - فهو أولى ممن يكون متقدمًا في البواقي، ولا يكون بمنزلته في هذين. فيلزم أعلمهما أن يشارك أعقلهما، ويعاضده. ويلزم أعقلهما أن يعتضدَ به ويرجع إليه، مثلما فعل عمر وعلي" ا. هـ (الشيخ الرئيس ابن سينا، كتاب الشفاء، قسم الإلهيات، المقالة العاشرة، الفصل الخامس، الصفحة رقم 452، السطور من 8 إلى 12، وما بين الأقواس فمن عندي).

قلتُ: هذا يدل على اعتبار ابن سينا رحمه الله عليًا الأعلم، وعمرَ الأعقل والأحكم سياسة، وأن أولاهما بالإمامة بالتالي، حسب الشرطين اللذين ذكرهما، هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، ورحم الله ابنَ سينا رحمة واسعة، فما وصلت الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ إلى المعالي في كل شيء كما وصلت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام الله ورضوانه عليه.

(1.4) المذهب الفقهي لابن سينا

ذكر الشيخ الرئيس ابن سينا أنه كان يختلف في الفقه إلى إسماعيل الزاهد. قلتُ: هو اسماعيل الزاهد بن الحسين ابن هارون البخاري الحنفي، المتوفى سنة 402 هـ قبل وفاة ابن سينا بنحو 26 عامًا، وكان عمره وقت مولد ابن سينا نحو 32 عامًا. هذا وقد ترجم لابن سينا التقي الغزّي الحنفي في "الطبقات السّنية في تراجم الحنفية" (ج 3 / ترجمة رقم 751). كما ترجم له ابن أبي الوفاء القرشي الحنفي في "الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية" (ج 2 / ترجمة رقم 453). وقال عنه الصّفَدي في "الوافي بالوفيات (ج 12 / ص 250): "كان رأيه في الفروع رأيَ أبي حنيفة" ا. هـ.

[الفصل الثاني]: من آراء وفكر ابن سينا

(2.1) في التفسير: قوله تعالى "سيذّكر مَن يخشى"

يقول الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا، رحمه الله:

" هم المنتفعون بدعوة الأنبياء القابلون لها والمستكملون بها أنفسَهم ومبدأ هذا القبول إنما يكون من الخوف والخشية، وهو أنّ مَن سمع دعوة الأنبياء، ثم خطر بباله أنّ هذه الدنيا ذاهبة فانية على كل حال، فلو لم يشتغل بعمارة الآخرة فربما وقع في الهلاك الأبدي، حصلت له الخشية، وحمله ذلك على النّظر والتأمل في دعوة الأنبياء، ويدعوه إلى الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة. وأما الذين لا يقبلون دعوة الأنبياء ولا ينتفعون بها فإليهم الإشارة بقوله: وسيجنّبها الأشقى ..." ا. هـ. (ابن سينا، رسائل التفسير)

(2.2) في التوحيد: أسماء الله الحسنى

يقول الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا، رحمه الله:

"... الموجودات مختلفة، فبعضها مسموع، وبعضها مُبصَر. وكونه (سبحانه) عالمًا بالمسموعات هو كونه سميعًا. وكونه عالمًا بالمُبصَرات هو كونه بصيرًا. فالعلم واحد، وإنما تختلف أسماؤه لاختلاف متعلقاته: فإذا تعلّق (العلم) ببواطن الأشياء فإنه (سبحانه) يسمى خبيرًا. وإذا تعلق بظواهر الأشياء سُمِّيَ شهيدًا. وإذا تعلق بالمعدودات سُمِّيَ محصيًّا. وإذا تعلق بالمسموعات سُمِّيَ سميعًا. وإذا تعلق بالمُبصَرات سُمِّيَ بصيرًا. وإذا تعلق بدقائق الأشياء - مع حفظها ورعايتها - سُمِّيَ لطيفًا. وإذا جمع (كل ما تقدم) فيقال: عالم الغيب والشهادة لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء" ا. هـ. (ابن سينا، الرسالة العرشية)

(2.3) هل نفى ابن سينا المعاد الجسماني حقًّا؟!

يبدو لي أن فهم تراث ابن سينا قد تعرض لتشويه متعمد أو غير متعمد

فحسب ما ظهر لي فإنه لا ينفي المعاد الجسماني، ولكنه ربما يعظّم من أمر السعادة والشقاء النفسيّن أكثر من الجسدي، دون أن ينفي الجانب الجسدي، بل يمتثل لأمر الشريعة، فيه، ولنستمع ماذا يقول الشيخ الرئيس، أبو علي ابن سينا، رحمه الله وطيّب ثراه:

"يجب أن تعلمَ أن المعاد:

١. منه ما هو مقبول من الشّرع، ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة، وتصديق خبر النبوّة، وهو الذي للبدن عند البعث. وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج إلى أن تُعلَم. وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها سيدنا ومولانا نبينا محمد ﷺ حالَ السعادة والشقاوة (الأخرويتين) بحسب البدن.

٢. ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني، وقد صدّقته النبوّة، وهو السعادة والشقاوة البالغتان اللتان للأنفس، إلا أن الأفهام تقصر عنها، لما نوضح من العلل ..." ا. هـ. (ابن سينا، في أحوال النفس)

(2.4) من وصايا الشيخ الرئيس الحسين ابن سينا، رحمه الله

١. أول ما أوصيك به: تقوى الله عزّ وجلّ، فما خاب مَن آب إليه، وما تعطّل من توكّل عليه.
٢. احفظ شريعتَه فإنها طريق عباد الله إلى رضوان الله.
٣. كل دعوى لم يشهد بها شواهد الكتاب والسُّنّة فهي من تفاريع العبث، وشُعَب الرّفث.
٤. مَنْ لم يعتصم بحبل القرآن غوى، وهوى في غيابات جُبِّ الهوى.

(ابن سينا، مجموع الرسائل، بتصرف يسير)

وكتبه معتز شطا